

Revue des Lumières 5

Spécialisée en sciences humaines;
pensée et communauté



مجلة الاصلاح

مجلة الاصلاح، للعلوم الإنسانية والفكر والسياسة والمجتمع.

العدد 5، يوليو 2020

ISSN 2649 4744

أ. عز الدين جبار	اللغة في درس الجابري تصور عام حول الانساق المعرفية للمفهوم
د. الحسن بنيعيش	اللغة العربية وسؤال الحضارة
د. علي خضري	الانزياح الدلالي في أشعار عبد العزيز المقلح
د. عبد الرحيم ناجح	ديداكتيك المعجم : معايير اختيار المعجم وتنظيمه لغير الناطقين بالعربية
أ.د. عبدالله ابو الغيث	حملة ابرهة الحبشي على منطقة وسط الجزيرة العربية المذكورة في نقش مسندي وعلاقتها بحملته على مكة المذكورة في القرآن الكريم
أ. صباح عبيد	حرب الجزائر ١٩٥٧ الحادثة الموثقة لمأساة انسانية جزائرية وضربة جزاء فرنسية دراسة تحليلية تاريخية
د. عبد الحكيم العراشي	معالجة المنهج النبوي للمشكلات التي تؤثر على السلم في المجتمع الإسلامي " دراسة تاريخية "
د. مصطفى أمقدوف	الفكر التحديتي المعاصر وأزمة الغلو في الدين: مقارنة نقدية في خطاب الديانبيين والعلمانيين
د. اتفاق محمود السقاف	مستوى ممارسة مبادئ التعلم النشط في تدريس مادة العلوم في مرحلة التعليم الأساسي في مديرتي صيره والتواهي في محافظة عدن.
سناني عبد الناصر	المتابعة السيكولوجية للوالدية - من أجل مساندة إكلينيكية لوظيفة الأبوة -
Zribi Souad	Le communisme cinématographique



اللغة في درس الجابري

تصور عام حول الأنساق المعرفية للمفهوم

أ.عز الدين جبار

باحث بمختبر اللغة والمجتمع في جامعة ابن طفيل – القنيطرة / المغرب

E-mail : jabbar.ibntofail@gmail.com

ملخص:

من الصعب أن ننزع الطابع الرمزي عن اللغة، فهي نظام صارم من العلامات والرموز الدالة على الفكر، وهي من ناحية أخرى، منظومة من القيم والمفاهيم المشكلة لرؤية الإنسان لذاته ووجوده. تهدف هذه الدراسة إلى تقصي حضور المسألة اللغوية في مشروع المفكر المغربي محمد عابد الجابري، باعتباره أحد أعلام الفكر الفلسفي – في الوطن العربي – الذين بحثوا في أبستمولوجيا المعرفة وضمناها، المعرفة اللغوية العربية. كما تسعى هذه الورقة البحثية، إلى استجلاء العلاقة بين اللغة والفكر في وعي الجابري، إذ رأى في عصر التدوين ثورة ثقافية كبرى شهدتها المجال العربي في مراحلها التاريخية وهذا ما أسماه، إعادة البناء الثقافي العام، حيث تم تدوين اللغة وتشديد العلوم العربية والإسلامية.

Résumé : La langue dans la pensée de Abed Al Jabri, Une réflexion sur les systèmes cognitifs du concept.

Le chercheur : Jabbar Azeddine

On ne peut pas dissocier l'aspect symbolique de la Langue. Celle-ci constitue un système strict de signes et de symboles lié étroitement à la pensée. Bien plus, la langue se définit comme un ensemble de valeurs et de notions susceptibles de façonner la vision de l'individu à soi-même et à son existence.

L'étude que nous proposons cherche à investiguer la présence de la question linguistique dans le projet intellectuel du penseur marocain Abed Al Jabrien tant que l'une des figures éminentes de la pensée philosophique, dans le monde arabe, qui se sont penchés sur l'épistémologie du savoir dont le savoir épistémologique arabe.

Cette étude se propose également de déterminer le rapport entre la langue et la pensée dans le conscient de Al Jabri, lui qui considère l'ère de l'écriture une vraie révolution dans l'histoire du monde arabe. Il qualifie ce changement de

Reconstruction Culturelle Générale au cours de laquelle on a pu codifier la langue et édifier les sciences arabes et islamiques.

مقدمة:

يتعارف اللسانيون وعلماء الاجتماع على أن اللغة هي أكثر من مجرد آلية للتبليغ والتواصل، بل هي قدرة تمكن من الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها، ورسم معالم الواقع الطبيعي/ الاجتماعي، ونظام من العلامات والرموز الدالة على الفكر، ومنظومة من القيم والمفاهيم المشكلة لرؤية الإنسان لذاته ووجوده.

إن اللغة هي الصورة التي يتمثل فيها تفكير الأمة ورؤيتها للعالم والوجود، وهي أساس الحضارة البشرية وعامل مهم من عوامل التكيف مع الحياة. إنها نتاج طبيعي للنشاط الإنساني، واردة عن تطابق ملكات الإنسان مع حاجاته الاجتماعية، واللغة في حقيقتها ذات وظيفة اجتماعية وثقافية، والمعبر الأهم عن الثقافة التي تحددها خصائص المجتمع من قيم وأعراف وتقاليد وأنظمة اجتماعية. ورد في حوار مع المفكر والفيلسوف المغربي "محمد عابد الجابري" حول المسألة اللغوية في الوطن العربي الإشكال الآتي: "يتضح من خلال اشتغالكم على اللغة العربية كنظام معرفي أنها مكون تأسيسي للفكر العربي الإسلامي عبر كل تاريخه. وقد ظلت مكوناً وأداة رمزية مقدسة إلى اليوم، وذلك برغم وجود لغات أخرى بجانبها في الفضاء الإسلامي. فما هي العناصر التي توفرت لهذه اللغة دون غيرها من اللغات الإسلامية لتجعلها مكوناً مركزياً في بنية تفكيرنا؟".

مبدئياً، جميع اللغات مقدسة عند أهلها. فليس هناك شعب يرى النقص في لغته، فهو إن لم ير فيها الكمال يؤكد قابليتها للكمال... منذ سنوات كنت في إسبانيا وطلبت مكالمات هاتفية من بدالة القسم الدولي وكنت أتحادث بالفرنسية فأجابني: أنت الآن في إسبانيا وعليك أن تتحدث بالإسبانية ثم قطعت الخط. إذن جميع اللغات مقدسة عند أهلها وجميع الأمم تعنى بلغاتها، فهناك مجاميع لغوية عليا في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها مهمتها ضبط اللغة: ضبط الدخيل والمولد والاشتقاق. والتقرير فيما يجوز وما لا يجوز. والعرب يحبون لغتهم ويقدمونها، وهذا من حقهم. ولعل انفراد اللغة العربية بنفسها اليوم، أعني عدم ارتباطها بغيرها من اللغات (كما هو الحال في اللغات الأوروبية التي ترتبط مع بعضها في مجموعتين أو ثلاث)، لعل انفراد اللغة العربية بنفسها هو ما جعل المتحدثين بها يشعرون بانتمائهم إلى فضاء لغوي مستقل ويعتزون بهذا الاستقلال".¹

إن البحث في علاقة الإنسان باللغة يحيل بالضرورة التاريخية إلى علاقة اللغات بأنساق التفكير وطرائق العيش الاجتماعي وأنماط إنتاج الوعي الثقافي المحدد لكل عشيرة لغوية متكلمة، وقد شكلت اللغة أداة وموضوعاً في الآن نفسه وهذا ما جعل منها ظاهرة شغلت ولا تزال تشغل حيزاً من الفكر الإنساني على حد سواء، ينضاف إلى ذلك حيويتها وقابليتها المرنة على النمو والتطور والانفتاح أو الانغلاق.. بمعنى يمكن اعتبارها، كائناتاً حياً يخضع لقانون الطبيعة بكل مظاهره وأنساقه المتغيرة والمطردة.

عندما يتداول الإنسان اللغة فإنه إذ يستبطن حملتها يعيد شحنها بذاتيته الخاصة، وبذلك يساهم في تشكيل القيم والادعاءات التي يروج لها المجتمع، إما في الاتجاه الإيجابي عن طريق تطوير تلك القيم والمعارف، وإما في الاتجاه السلبي عن طريق التراجع بها القهقري وبالتالي تفقيرها،² بمعنى أن الجماعة المتكلمة تتحمل وعيها التاريخي ومسؤوليتها تجاه لغتها باعتبارها خزاناً ورصيداً فكرياً وثقافياً وجب العمل على الحفاظ عليه بل وتطويره ضماناً لاستمرارية الذات أمام مختلف التحديات الخارجية.

لقد عرف الإنسان اللغة منذ بداياته الأولى على وجه هذه البسيطة واستعملها وتداولها منذ آلاف السنين، ودون بها حضارته بمختلف الأشكال والرموز والرسوم، سواء على الجدران أو المعابد القديمة أو الصخور أو الجلود ونحوها... لكنه قلما وقف في مسيرته

1- محمد، عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص. 274 / 275 / 276.

2- عبد السلام، عشير، تطور التفكير اللغوي، ط1، الرباط، 2010، ص. 7.

الطويلة عند هذا المكون الطبيعي والفطري الذي ولد معه وهو "اللغة"، كي يسأل عن ماهيتها أو طبيعتها أو مكوناتها، ذلك أن تداولها يختلف تماما عن تحويلها موضوعا للدراسة والتشريح.

الجزيرة العربية وما حولها هي المهد الأول للعرب، فيها نشأوا وعاشوا قبائل متباينة تختلف في لهجتها ولغاتها، "والعربية التي نعرفها اليوم هي لغة الحجاز التي وصلت إلينا، وكانت قبل الإسلام لغات عديدة تعرف بلغات القبائل".³

ترجع أسباب الاختلاف بين لغات القبائل العربية إلى عناصر ترتبط بنطق بعض الحروف والحركات والكلمات. "بمعنى أنهم يستعملون كلمات مختلفة للدلالة على معنى واحد. أو يستعملون كلمة واحدة للدلالة على معان مختلفة".⁴

1- اللغة والفكر والثقافة في تصور الجابري:

تحضر اللغة في وعي الجابري باعتبارها نسقا حاملا للوعي الثقافي وعلامة دالة على انتماء الإنسان لمحيطه ومجاله الاجتماعي والجغرافي كذلك، فضلا عن كون اللغة حاملة لثقافة انتماء متكلميها، كما ينطلق الجابري أيضا من حتمية صاغت تصوره الثقافي واللغوي ويتعلق الأمر بواقعة تعدد الثقافات. "نطمح إلى طرح المسألة في إطار ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الإبستمولوجيا الثقافية"، نقصد بذلك البحث في أساسيات المعرفة، أي في نظامها وآليات إنتاجها داخل ثقافة معينة. ونحن هنا نصدر عن أطروحة تقول بتعدد الثقافات كواقعة أساسية، وتؤكد على أن كل ثقافة تحمل جنسية اللغة التي تنتجها، وأن نظام المعرفة العام في كل ثقافة لا بد أن يختلف، قليلا أو كثيرا عن نظام المعرفة في الثقافات الأخرى، وأن للغة دورا أساسيا في هذا الاختلاف...".⁵ وبهذا تحضر اللغة في وعي المفكر العربي باعتبارها أداة لحمل الوعي الثقافي وقد تتجلى أيضا في كونها هي الثقافة والانتماء في صورتها الخالصة، ومن هنا حق لنا أن نعتبر أن اللغة أشد القضايا التي رافقت الإنسان العربي على امتداد تاريخه ورقعة حضوره الجغرافي والمجالي "إن حماية اللغة في تاريخنا لم يكن يقل شئنا عن حماية الأرض - تلك التي كان أجدادنا يسمونها البيضة- وعن حماية الذات الجماعية حتى أوشكت اللغة أن تنمأى والهوية. فما كان يتصور للعروبة ولا حتى للإسلام مفهوم خارج حصون اللغة. ولو أردنا اختزال الظاهرة الكبرى في معادلة صغرى لقلنا: إن تاريخ العرب في مصاعده كما في منازلهم يكتب من خلال تاريخ لغتهم في مهدها وجزرها".⁶

يتبنى الجابري وعيا حول الظاهرة اللغوية باعتبارها منظومة فاعلة في إنتاج الذات المشكلة للثقافة والخطاب، فهي تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم بمعنى أنها عنوان لأنماط وصيغ وقوالب التفكير، الأمر الذي دفعه إلى أن ينظر للعقل العربي بوصفه نتاجا للثقافة العربية الإسلامية التي تأسست على نظم معرفية ثلاثية "نظام معرفي لغوي / عربي الأصل، ونظام معرفي غنوصي / هرمسي الأصل، ونظام عقلائي / يوناني الأصل.

عند ما نطرح هنا العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، إنما نرمي إلى تسليط الضوء على أحد النظم المعرفية التي أسست الفكر العربي، النظام الذي تحمله اللغة التي يمارس هذا الفكر فيها وبواسطتها فاعليته".⁷ تحضر اللغة في هذا السياق الذي تحدث عنه الجابري باعتبارها وعاء ومجالا تتحرك فيه الممارسة الفكرية والعقلية... وليست باعتبارها هي الفكر أو هي الثقافة إن صح التعبير. من المسلم به اعتبار العلاقة التي تجمع اللغة والفكر علاقة تلازم ومصاحبة وانعكاس، وهذا أمر أكدته اللسانيات البنوية مع رائدها دي سوسير، ومن الواضح كذلك أن هناك علاقات بين اللغة والفكر والثقافة، لكن تحليل طبيعة هذه العلاقة أمر فيه كثير

3- عبد العزيز، عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، دار النهضة العربية، بيروت، ص. 115.

4- المرجع نفسه، ص. 115.

5- محمد، عابد الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، ندوة البحث اللساني والسيميائي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 6، ماي 1981، ص. 43.

6- عبد السلام، المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 1 بيروت، يوليو 2014، ص. 25.

7- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 44.

من المغامرة المحفوفة بالحذر المعرفي، لأن الموضوع شكل مثار جدل لازال قائما إلى يومنا هذا، وقد تمت معالجة هذه المسألة دائما من قبل الفلاسفة أو اللسانيين النفسيرين وغيرهم من رواد المباحث المعرفية والعلمية. "هناك عدد من المواقف التي تمت صياغتها حول العلاقة بين اللغة والفكر وتتضمن:

أ- أن المعرفة مستقلة عن اللغة،

ب- أن اللغة مستقلة عن التطور المعرفي المسبق،

ج- أن المعرفة هي ببساطة لغة في صورة خطاب لفظي،

د- أن اللغة والمعرفة متوازيتان، أو أحدهما في البداية منفصلتان في النمو المعرفي واللغوي للطفل ويتقاربان".⁸

الجابري في سياق حديثه عن علاقة اللغة بالفكر والثقافة، وقف عند مفهوم الثقافة العربية باعتبارها إطارا مرجعيا لتعريف اللغة: "إننا نعني بها مجموع التراث الفكري المنحدر إلينا من الحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى. هذه الثقافة التي تسجل بنفسها بدايتها ومنطلق تشكلها. وليس هذا المنطلق ولا تلك البداية شيئا آخر غير ما اصطلح على تسميته بـ "عصر التدوين"، عصر البناء الثقافي العام في التجربة الحضارية العربية الإسلامية، العصر الذي يمتد زمنيا ما بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث للهجرة ليشكل الإطار المرجعي للفكر العربي بمختلف ميادينه".⁹

لقد نظر الجابري إلى عصر التدوين ورأى فيه ثورة ثقافية كبرى عرفها المجال العربي في مسيرته التاريخية وهو ما أسماه (إعادة البناء الثقافي العام) وهذا أمر لم يمنعه من اعتبار هذا العصر قد تدخلت في صياغته هواجس إيديولوجية وثقافية صاغت المعرفة وفق أطر مرجعية لعب فيها الفاعل السياسي محمدا بارزا، وخضع التراث الفكري والمعرفي لمقص الرقابة بالزيادة والحذف. ففي هذا العصر دونت اللغة وشيدت العلوم العربية الإسلامية وترجمت الفلسفة وعلوم الأوائل إلى العربية... وقد تم ذلك في تداخل وتشابك مما أضفى على العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية الإسلامية خصوصية متميزة.¹⁰

رصد الجابري خصوصية العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية في عدة مستويات أهمها: مستوى المادة اللغوية ونوع الرؤية التي تقدمها عن العالم. ومستوى القوالب النحوية وطبيعتها المنطقية، ومستوى أساليب البيان العربي وطبيعتها الاستدلالية، وأخيرا مستوى منهجية البحث العلمي وآلياته الذهنية العربية.

2- نظرة حول القبائل العربية التي أخذت عنها اللغة:

قبل أن نشعر في تقصي مفهوم المادة اللغوية كما تمثلها الجابري، لا ضير إن وقفنا عند البدايات الأولى لتشكيل المادة اللغوية في ارتباط بالقبائل العربية التي نشأت المفردات والعبارات في حضنها. "العرب قسما: هم عرب اليمن أو الجنوب، وينتسبون إلى يعرب بن قحطان. وقد نزحت بعض قبائلهم إلى الشمال والشرق من جزيرة العرب، فنزل بعضهم إلى اليمامة والبحرين وعمان والحجاز ومشارف الشام والعراق.

ومن قبائل القحطانيين: حمير، وغسان، والأزد، وكندة وطيء... والعبدانيون: أو عرب الشمال، منازلهم في تهامة ونجد والحجاز ويقال لبطن العبدانيين، المعدية والنزارية. ومن معد نزار التي تفرعت إلى: أثمار ومضر وربيعة وإياد. وتحت كل فرع من هذه الفروع قبائل كثيرة، إلا أن الفصاحة اشتهرت في مضر، حتى عرفت اللغة العربية بالمضربة... ومن أشهر قبائل مضر: كنانة (ومن بطونها قريش)، ثم قيس وتميم وأسد وهذيل وضبة ومزينة، وتحت كل قبيلة بطون وأفخاذ".¹¹

8- فلوريان، كولماص، دليل السوسيولسانيات، ترجمة خالد الأشهب وماجدولين النهجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، دسمبر 2009، ص. 760.

9- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 44.

10- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، نفسه، ص. 45.

11- عبد العزيز، عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، مرجع سابق، ص. 116 / 117.

لقد كانت قريش أجود العرب في انتقاء لغاتها وقد وصف ذلك الفارابي في كتابه "الألفاظ والحروف فقال: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس".¹²

لقد تضافرت عدة عوامل ثقافية واقتصادية في جعل قبيلة قريش تحظى أرفع مقام في اللغة واستعمال ألفاظها، فكانت القبائل تغد إلى قريش للتجارة والحج، ما جعل لغتها تحتوي ألفاظاً صافية وفصيحة ومشهورة عند باقي قبائل العرب ذلك أن الفصح بالنظر إلى مقاييسه عند الرواة هو ما كثر استعماله على ألسنة العرب وشاع في أكثر لغاتهم، لأن القبائل العربية المختلفة في لهجاتها لم تكن على قدر واحد من فصاحة الكلام وجودة العبارة. وهذا أمر دفع جامعي الألفاظ العربية أن يتحروا جمع مادتهم من القبائل الأكثر فصاحة، فكانوا يفاضلون بين القبائل ولغاتهم، ولا يجمعون اللغة إلا ممن خلصت ألسنتهم من الدخيل والشوائب.

3- الأعرابي صانع العالم:

ارتبط التدوين عند الجابري بالحاجة إلى الحفاظ على اللغة العربية في ينابيعها الصافية بالنظر إلى الواقع الذي بدأ يفرض نفسه ونعني به: واقع اللحن في التعبير والقول الذي بدأ يسري في المتكلمين مما سيدفع إلى اختلاط جيد الكلام بفاسده وسط مجتمع متعدد الأصول والامتدادات. "ومهما يكن الدافع الحقيقي والحاسم لهذه العملية فالنتيجة هي، أن جمع اللغة العربية بالشكل الذي تم به، قد ساعد على استمرار التعامل مع القرآن بكيفية مباشرة فهما وتفسيراً، فضلاً عن تزويد المجتمع الإسلامي بلغة ثقافية واحدة قابلة لأن تتعلم بطريقة علمية".¹³ لقد طلبت اللغة العربية الصحيحة بعدما كثر اللحن في الكلام واتجه الرواة وجامعوا الألفاظ إلى البوادي التي سلمت من التفاعل والتداخل الثقافي وهي قبائل حافظت على سليقة اللغة وفطرتها. لقد عمل الرواة الأوائل على أخذ اللغة وجعلها إطاراً مرجعياً يحدد ثقافة الإنسان العربي وإدراكه الطبيعي لمحيطة الخارجي وفضاءه الذي ينتمي إليه بالفطرة والسجية.

لقد أكد الجابري على أن الرواة لم يعتمدوا القرآن أساساً لإحصاء اللغة العربية وتحديد قوالها واستخراج قواعدها، لأن المطلوب من عملية جمع اللغة كان هو (تحسينه من الخارج)، "الشيء الذي يقتضي إيجاد لغة ما "وراثية" تكون إطاراً مرجعياً له سواء على مستوى اللفظ أو التعبير أو المعنى".¹⁴

اعتبر الجابري أن عملية حفظ اللغة كانت عملية تلقائية تواكب حياة اللغة نفسها، أي لغة. وهذه عملية تتطور كي تغدو "صناعة" حسب تعبير ابن خلدون. لكن الدكتور عبد العزيز عتيق له رأي مختلف عما طرحه الجابري في قضية جمع اللغة، إذ يقول: "القرآن الكريم كان أول مصدر اتجه إليه العلماء عند جمع اللغة، ذلك لما في القرآن الكريم من مفردات واستعمالات كانت أصح مصدر لعلماء اللغة. ولم يكتف العلماء في ذلك بجمع مفردات القرآن واستعمالاته وإنما اجتهدوا أيضاً في تحديد معاني هذه المفردات والاستعمالات. وقد حفزهم هذا الغرض في الرحلة والرواية وتبين مدلول ألفاظ القرآن. كذلك كانت ألفاظه سبباً في أن يجمعوا حول كل لفظة ما يتصل بها، ويبين اشتقاقها، وما تفرع من مادتها".¹⁵

لقد تحولت الرواية حسب الجابري إلى صناعة احترافية مع بداية القرن الثاني الهجري حيث "ظهر رجال جندوا طاقاتهم المادية والفكرية لهذا الغرض. ومن أبرز هؤلاء أبو عمرو بن العلاء وحمام الرواية والخليل بن أحمد... وكان في مقدمة الشروط التي وضعوها فيمن تؤخذ منه اللغة أن يكون خشن الجلد أي أعرابياً صميماً لم يعرف حياة المدينة ولم "تفسده" الحضارة. كما كان التنافس شديداً في العثور على أكثر الأعراب إيعالاً في الفقر والعزلة، كان التنافس أشد على الحصول منهم على الغريب النادر من اللغة".¹⁶

12- المرجع نفسه، ص. 117.

13- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 45.

14- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، نفسه، ص. 45.

15- عبد العزيز، عتيق، المدخل إلى النحو والصرف، مرجع سابق، ص. 123.

16- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 46.

طرح الجابري في سياق الحديث عن جمع المادة اللغوية من الأعراب مسألة في غاية الأهمية وتتمثل في كون اللغة التي جمعت تحيل على عالم خاص بالبداءة، عالم محدود بالمادة المحيطة به غدت معه الحياة ذات نمط حسي بدائي، ومن هنا فاللغة المجموعة لا تاريخية فيها بقدر ما أصبحت تحيل على واقع مغلق، "يمكن أن نلمس ذلك بسهولة في المعاجم العربية العامة أو المتخصصة حيث يسود عالم "الأعرابي" سيادة مطلقة. إن المعاني والاستشهادات والاستطرادات، كل ذلك ينقل إلينا حياة الأعراب الحسية البسيطة البدائية. ولقد بلغ تقيد واضعي القواميس بعالم الأعرابي أن اعتبروا كل كلمة لا ترجع إلى أصل حسي بدوي هي كلمة "دخيلة" تحمل إذا لم تكن معربة أو تذكر في الحالة المخالفة، مع التنصيص على أنها من الدخيل".¹⁷

لعل ما ساقه الجابري متحدًا عن الدخيل والأصيل في الاستعمال اللغوي العربي هو ما صاغه علماء المعاجم في نظرية عرفت بالمهمل والمستعمل من كلام العرب، وهذا مظهر آخر من مظاهر حياة اللغات وحركتها، فاللغة ظاهرة حيوية متغيرة وغير ثابتة، تعرف نشاطا مستمرا بفعل المتغيرات الاجتماعية والسياسية وغيرها.

يعقب الأستاذ إدريس السغروشي في ندوة علمية بالرباط عما طرحه الجابري في قضية جمع اللغة من الأعراب وتأثرها بالعالم الخاص بالأعراب وبالتالي فاللغة بدوية في نشأتها وجمعها، الأمر الذي ينعكس على طبيعة الفكر كذلك، فيقول: "لعله تعميم خاطئ ذلك أن النحاة العرب ما كانوا يتغيون حين اتجهوا إلى البدو لغة بدوية بقدر ما كانوا يودون الاتجاه كما يفعل اللسانيون المحدثون الآن إلى المتكلم/المستمع الفطري الذي يعيش في مجتمع متجانس كل التجانس من الناحية اللغوية، ويتقن لغته إتقاناً وليست به أية عاهة من شأنها أن تؤثر في سلوكه اللغوي، كفقْد الذاكرة مثلاً...".¹⁸

يمكن أن نعتبر لجوء العلماء الأوائل في مصدر اللغة البدوي كان نابعا من شعورهم أن اللغة مظهر فطري في الإنسان تغذيه التنشئة الاجتماعية والانتماء إلى فضاء متجانس، الأمر الذي دفع الرواة إلى الاتجاه إلى المتكلم المجرد والطبيعي، لبيان القيم النسقية الكامنة خلف التعبير اللغوي.

يستطرد الأستاذ إدريس السغروشي معقبا على الجابري: "إذا كان المعجم العربي معجما حسيا، معجما بدويا، فليس هذا دليلا على أن الفكر كله الذي يظهر في المعجم فكرا بدويا، والعلاقة بين الفكر واللغة لا تؤخذ من المعجم، إنما تؤخذ من التركيب ومن العلاقات والوظائف التي تتوي داخل الجملة".¹⁹

قارب الجابري قضية اللغة وخصص لها حيزا في مشروعه الفكري والمعري بالنظر لمركزيتها في تكوين الذهنية العربية، هذه الذهنية قائمة على التكلم وإنتاج الخطاب في صوره المتعددة، لذلك اعتبر الشعر ديوان العرب، واعتبر القرآن مكونا عقائديا تحمله اللغة ويصل إلى الأذهان والأفهام بواسطتها. غير أن الجابري في معرض حديثه عن أعرابية اللغة وجودها في أنساق ثابتة تعكس نمط العيش الضيق والحياة الحسية المرتبطة بمناخ الأعراب، تعرض لبعض الانتقادات ونسوق في هذا الشأن ما أكده الباحث "محمد همام" في كتابه: "جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان" حيث يقول: "أصدر الجابري سلسلة من الأحكام، إن كان فيها شيء من الصحة، فإنها تخل بمقتضيات الوعي اللساني العميق بالظاهرة اللغوية، فاللغة العربية عنده أصبحت (محصورة الكلمات، مضبوطة التحولات، لغة لا تاريخية... لا تتجدد بتجدد الأحوال ولا تتطور بتطور العصور...) والتركيز على "الأعراب الأقحاح" في جمع اللغة يعني (جعل عالم هذه اللغة محدودا بحدود أولئك الأعراب...).

إن المتتبع للسياق النقدي الذي أورد فيه الجابري هذه الآراء اللغوية، لن يخرج برؤية نقدية متماسكة، كما عهدنا في بعض مواضع المشروع حين مناقشة بعض القضايا الفلسفية، فالجابري في أحكامه اللغوية يتحدث مرة عن فقر لغة الأعراب وهو يعتبرها في الوقت

17- المرجع نفسه، ص. 46.

18- محمد عابد الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 65.

19- محمد عابد الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 66.

نفسه أوسع من لغة الواقع، ويرى اللغة مرة أخرى "محصورة الكلمات" ويستقبح في مكان آخر "التضخم في الكلمات". إن هذه الهجانة في الأحكام تبرز فقدان وعي الجابري اللساني لنسقه الاستدلالي المؤسس على تصور لغوي متماسك، فلو كان الجابري يعي مفهوم "الأمثلة" اللساني أو المتكلم/ المستمع المثالي، لما جنح إلى القول: "إن الأعرابي فعلا، هو صانع" العالم "العربي.. عالم فقير ضحل جاف، حسي، لا تاريخي، يعكس ما قبل تاريخ العرب...". فقد تحول الجابري من ناقد "إبستمولوجي" إلى كاتب "تقرير" اختزل الدرس اللغوي في تحليل وجداني ساذج... وإلا، كيف يعقل أن يحتج الجابري على خلو قاموس لسان العرب من الأشياء الطبيعية والصناعية والمصطلحات وأسماء الأدوات وغيرها... متجاهلا قواميس اصطلاحية متخصصة مثل: مفاتيح العلوم للخوارزمي، وكتاب التعريفات للشريف الجرجاني، وكتاب: كشاف اصطلاحات الفنون للتهناوي، ومعجم الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار...²⁰.

إن قول الجابري بلا تاريخية اللغة العربية اعتبره الباحث "محمد همام" قول فيه كثير من التمثل والعسف ما لا يطاق، فالدعوة إلى تجديد اللغة لا يمكن أن تنبني على هذه المسلمات الباطلة.. لقد كان الجابري صارما وحازما في فضح الاستشراق وأعوانه، إلا أن خروجه بأحكام من قبيل "عالم العربي الحسي اللاتاريخي". هي ترجمة للنظرة الغربية إلى الآخر التي تحكمها ثنائية المركز والهامش، النظرة التي ترى المجتمعات غير الأوروبية لا تاريخية، تعيش على الفطرة والطبيعة وليس على التفكير والتدبير، ونخشى أن نقول: إن الجابري أعاد مقولة "رينان" بلسان عربي مبين".²¹

إن قضايا اللغة التي نشرها الجابري في مشروعه الفكري، كانت محط جدل معرفي، بالنظر إلى طبيعة المناولة التي اعتمدها في عرض قضايا اللغة ونشأتها، ولعل (هفوات) الجابري لها مبرر معرفي واحد، هو قصوره في تتبع النظريات اللسانية المتغيرة والمتطورة في حقل الدراسات المهمة باللغة أساسا، وهذا أمر — في تقديري — لا ينقص من حجم مساهمة الجابري في نقد وتوجيه مسار الوعي اللغوي العربي، ومن خلاله، مسار الفكر العربي.

4- بين النحو والمنطق:

لقد قام التدوين في مراحله الأولى على قاعدة السماع، وهو ما يقابله اليوم مفهوم الاستعمال اللغوي، وهو المبدأ الذي انطلق منه اللغويون والنحاة أثناء جمعهم للمادة اللغوية، انطلاقا من تدبر مفردات اللغة التي تفرض وجودا معيناً، فالتكلم ينتج عددا من الاستعمالات اللغوية مما تتداوله الجماعة التي ينتمي إليها فالاستعمال هو "سيد اللغة، والقاعدة في الحقيقة تكون ناجمة عن الاستعمال وليس العكس، وبهذا تمثل اللغة في جميع الثقافات قوة محافظة، إذ بدون هذا الطابع المحافظ، لا تستطيع اللغة أن تؤدي وظيفتها التواصلية...".²² لقد تأثر النحاة بالمنطق اليوناني فوظفوا مفهوم القياس في المعرفة اللغوية، الأمر الذي دفع الجابري في سياق حديثه عن اللغة إلى أن يعتبر النحاة عمدوا إلى "قولبة العقل الذي يمارس فعاليته في هذه اللغة وبواسطتها، العقل العربي الذي تغرسه الثقافة العربية في المنتمين إليها، وإليها وحدها. والواقع أن السماع من الأعرابي لم يكن دوماً من أجل أخذ اللغة، وإنما كان أيضاً من أجل "تحقيق" فروض نظرية في اللغة أو النحو".²³

أشاد الجابري بالطريقة التي وضع بها الخليل معجمه، وهي الطريقة التي تبنتها أغلب المعاجم العربية مع تعديلات يسيرة "تقوم فعلا على مبدأ منهجي سليم يكشف عن عبقرية فذة وعقلية رياضية...".²⁴

20- محمد، همام، جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، ط1، البيضاء، 2013، ص. 34/33.

21- محمد، همام، جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان، مرجع سابق، ص. 35.

22- عبد السلام، عشير، المدخل إلى النحو والصرف، مرجع سابق، ص. 14.

23- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 48.

24- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 48.

يسجل الجابري ملاحظاته النقدية حول العمل الذي قدمه الخليل في جمع اللغة، يقول: "لقد انطلق الخليل في جمع اللغة وتنظيمها من "الإمكان الذهني" لا من المعطى اللغوي، ففسح بذلك المجال لصنع اللغة بدل جمعها، بل إن طريقته تنطلق أساساً من وضع اللغة: "إن تركيب الحروف الهجائية العربية بعضها مع بعض لصياغة جميع الكلمات الممكنة، ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، يمكن أن ينظر إليه على أنه وضع بالجملة للغة العربية، وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها هو وزملاؤه اللغويون من أجل التمييز بين هذه المجموعات اللغوية النظرية، بين المستعمل والمهمّل فلقد كان من الصعب، بل من المستحيل وضع خط فاصل ونحائي بين ما نطقت به العرب وما لم تنطق به. خصوصاً في جو ساد فيه الولع بالغريب".²⁵

مشاهدة الأعراب في البداية شكلت مصدراً من مصادر جمع المادة اللغوية العربية. فكثيراً ما كان علماء اللغة يرحلون إلى البادية ويمضون الوقت الطويل وهم يرافقون الأعراب ويسمعون كلامهم عند الحديث ويعمدون إلى تدوين ما يتلقونه منهم. هذا وقد عرف عن الأعراب أنهم كانوا يهجرون باديتهم إلى الحضر ويقصدون علماء اللغة لإيصال الألفاظ والعبارات إليهم. "لقد رتب علماء اللغة درجات الأخذ والتحمل فقالوا: "أملئ علينا" أرفع من سمعت و "سمعت" أعلى من حدثني، و "حدثني" خير من "أخبرني". وكان دون ذلك كله الأخذ من الكتب والصحف".²⁶

لم تسلم المادة اللغوية المجموعة من قبل علماء اللغة من الشك، فكل ما جمع لم يكن على درجة واحدة من الصحة والثقة به، لما عرف عن بعض الرواة بفساد الرواية وكذبها. الأمر الذي سمي في أدبيات الجمع والتدوين بالوضع الذي تعددت أسبابه ودوافعه ومنها: البحث عن الوجاهة والرغبة في الظهور بمعرفة لم يسبق إليها أحد من قبل بالنظر إلى المنافسات التي طبعت علاقة العلماء ببعضهم البعض.

يشير الدكتور "عبد العزيز عتيق" أيضاً إلى قضية التصحيف وتأثيرها على مصداقية المادة المجموعة، بقوله: "فبعض العلماء أخذ اللغة عن الكتب والصحف، وقد كانت الكتابة في عصورها الأولى غير منقوطة ولا مشكولة، إلا القرآن، ولهذا دخل التصحيف اللغة".²⁷

نشير في هذا السياق إلى مفهوم المواضع والاتفاق وما تعارف عليه الأوائل في صناعة اللغة وتدوينها لأنه من الناحية المنهجية ليس هناك ما يمنع من خلق كلمة وتداولها داخل الجماعة المتكلمة، بالنظر إلى طبيعة اللغة وقابليتها للتحوّل والتغير، وهنا يصح أن نعتبر اللغة كائناً حياً يولد ويكبر ويتقوى، ثم يتعرض للضمور والانقراض...

لقد اعتبر الجابري اللغة المعجمية لغة الإمكان لا لغة الواقع، وهذا ما يفسر ميول علماء اللغة إلى تحكيم القياس بدل السماع، "فالكلمات صحيحة لأنها ممكنة وليس لأنها واقعية، لأن (الفرع) هنا هو في الغالب فرض نظري وليس معطى من معطيات الاستقراء أو التجربة الاجتماعية".²⁸

تكرست النظرة التي تنطلق من اللفظ في اتجاه المعنى وبهذا، يشكل الفعل أصل المشتقات التي تخضع في عملية اشتقاقها للقياس بدل السماع ويمكن اعتبار الأوزان الاشتقاقية قوالب منطقية قياسية.

يستدعي الجابري في معرض شرحه لطبيعة البناء الاشتقاقي في اللغة نماذج متميزة فيما بينها بالإصانة: "وهكذا" ففاعل " (الألف) للفعل كقاتل، و"مفعول" (الواو) للانفعال، كمقتول، و"فعيل"، الياء للفعل كشريف أو للانفعال كقتيل، و"فعال" (الشدة والألف) للفعل مع الكثرة كقتال، و"أفعل" (الهمزة) للتفضيل كأحسن... وهكذا يمكن القول: إن الصورة الصوتية هي التي تعطي لهذه

25- المرجع نفسه، ص. 48.

26- عبد العزيز، عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، مرجع سابق، ص. 124.

27- عبد العزيز، عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، مرجع سابق، ص. 125.

28- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 48.

المشتقات دلالتها المنطقية، فالسامع يحبس من خلال الصورة الصوتية هذه، هيكل المعنى حتى ولو كان مجهول معنى اللفظ جهلا تاما.

بهذا المعنى يربط الجابري المقولات اللغوية بالمقولات المنطقية، فاسم الفاعل - مثلا - مقولة منطقية إلى جانب كونه قالبا نحويا، "ومثله في ذلك جميع الأسماء المشتقة من الفعل وهي المصدر واسم المرة واسم الهيئة واسم الزمان والمكان واسم الآلة واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأسماء التفضيل وأمثلة المبالغة".²⁹

يقيم الجابري مقارنة دقيقة بين القوالب النحوية المنطقية العربية بمقولات أرسطو التي يمكن اعتبارها حسب وجهة نظر بعض الباحثين القدماء والمعاصرين، "مرتبطة باللغة اليونانية، إن لم تكن قد استخلصت منها. وهكذا فإن أخذنا بعين الاعتبار كون الجملة - والتالي التفكير - في اللغة اليونانية واللغات الآرية عموما، تنطلق من الاسم، وأن اللغة العربية تنطلق من الفعل أمكن (وضع تقابل) بين "الجوهر" وما يحمل عليه في منطق أرسطو وبين "الفعل" وما يشتق منه في النحو العربي".³⁰

الجوهر عند أرسطو يقابله عند النحاة العرب، الفعل. والكم ويقابله اسم المرة وأمثلة المبالغة، والكيف يقابله، إسم الهيئة والصفة المشبهة وأفعال التفضيل. ومقولتا الزمان والمكان عند أرسطو يقابلهما مفهوم الزمان والمكان. والفعل عند أرسطو يقابله اسم الفاعل، والانفعال يقابله اسم المفعول... .

يسجل الجابري ملاحظات دقيقة عن هذه التقابلات التي تجمع بين مقولات أرسطو والنحاة العرب. نوردتها على الشكل التالي:

■ غياب مقولات الإضافة والوضع والملكية من المشتقات النحوية العربية ومرد ذلك إلى كون هذه

المقولات (الإضافة والوضع والملكية) لا تحمل في نظرهم على الإنسان إلا على سبيل المجاز، فالإنسان لا يملك

وإنما المالك هو الله. (الله هو الفاعل الحقيقي).

تدل هذه التحديدات على أثر علم الكلام في نشأة علم اللغة، كما يمكن أن نعتبر أن الدرس اللغوي ارتبط منذ بداياته الأولى بالفكر الديني، أو ما يمكن اعتباره نسقا ثقافيا وحملته فكرية انطبعت بها الذهنية العربية والإسلامية، وهذا - في تقديري - أمر طبيعي يقع مع كافة اللغات، فاللغة في نهاية المطاف إفراز اجتماعي ونفسي للجماعة المتكلمة.

■ خلو مقولات أرسطو مما يقابل المصدر واسم الآلة في لائحة المشتقات العربية يمكن تفسيره بكون إسم

الآلة يدل على آلة الفعل والمصدر على الحدث، أي الفعل بدون زمان. (والمصدر عند النحاة هو ما يدل على

فعل بدون زمان)، والعقلية اليونانية لا تستسيغ حدوث شيء خارج الزمان، فالزمان والفعل متلازمان ومن هنا

قدم العالم وقدم الزمان. أما التصور العربي فهو يقبل الفصل بين الفعل والزمان ومن هنا القول بحدوث العالم وأن

الله خلقه "لا في زمان".³¹

لقد كان النحاة العرب على وعي عميق بحجم الاختلافات بل والتناقضات بين المقولات المنطقية اليونانية والمقولات النحوية

العربية، "وإنهم كانوا ينظرون إلى منطق أرسطو كنحو اللغة اليونانية وإلى النحو العربي كمنطق للغة العربية".³²

وعلى الرغم من أن المنطق الأرسطي قد تسرب في المراحل اللاحقة، بشكل واسع إلى العلوم العربية الإسلامية، وبكيفية خاصة

إلى النحو والفقه والكلام، فلقد ظل كثير من المشتغلين بهذه العلوم يشعرون وكأن الأمر يتعلق فعلا (بإحداث لغة في لغة مقررّة بين

29- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، نفسه، ص. 49.

30- المرجع نفسه، ص. 49.

31- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، مرجع سابق، ص. 49.

32- محمد عابد، الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية مرجع سابق، ص. 51.

أهلها)، فلم يترددوا في الإعلان عن أن هذا التداخل بين اللغتين / المنطقيين هو السبب في كثرة المذاهب والنزاعات في الثقافة العربية الإسلامية".³³

5- بين البيان والبرهان:

من القضايا اللغوية التي أثارها الجابري في مشروعه الفكري، قضية البيان العربي فقد حاول أن يصوغ تصورا أوليا وعاما عن النظام المعرفي البياني من خلال تحديدات البيانين أنفسهم، أي جميع المفكرين الذين أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية باختلاف مللهم ونحلهم وباختلاف المرجعيات الفكرية والثقافية التي ينهلون منها. "ولا شك أن الباحث سيرتكب خطأ كبيرا إذا هو اعتقد أن الاهتمام بـ "البيان" بأساليبه وآلياته وأصنافه كان من اختصاص علماء البلاغة وحدهم، هؤلاء الذين جعلوا من علم البيان أحد الأقسام الثلاثة التي ينقسم إليها "علم البلاغة" العربية (علم المعاني / علم البيان / علم البديع). فالبلاغيون الذين اتجهوا هذا الاتجاه كانوا آخر من ظهر على مسرح الدراسات البيانية، كما أن تصنيفهم ذاك لعلوم البلاغة لم يتقرر بصورة نهائية إلا في مرحلة متأخرة وبكيفية خاصة مع السكاكي المتوفى سنة 626 هـ".³⁴

تطورت الدراسات البيانية البلاغية خاصة مع عصر التدوين أي بعد الانتقال من مرحلة المشافهة والرواية إلى مرحلة التوثيق والدراسة وحسب تعبير الجابري (من الثقافة العامة إلى الثقافة العالمية) ولقد أثر التداخل بين الاختصاصات والمعارف على الحمولة المعرفية والفكرية لعلم البيان العربي بالنظر إلى وجود اللغوي المتكلم والمتكلم النحوي / الفقيه، والفقيه اللغوي... .

يسجل الجابري ملاحظة حول المعرفة البيانية، كونها انطلقت في التراث العربي في مجملها من النص الديني، ذلك أن علم البيان نشأ موازيا لتطور الدراسات القرآنية التي هدفت كشف أوجه الإعجاز والبلاغة في متنه ولغته.

لقد تطورت الأبحاث البيانية التي انطلقت مع بداية عصر التدوين واتسعت دائرتها لتشمل عدة أنساق معرفية للخطاب العربي العام الذي تسرب إليه نظامين معرفيين (العرفان والبرهان)، اللذين دخلا في صراع وجدل مع النظام البياني العربي. "إن استمرار المجادلات في الثقافة العربية الإسلامية سواء بين البيانين أنفسهم أو بينهم وبين "العرفانيين"، من متصوفة وباطنية وإشراقيين من جهة، أو بينهم وبين "البرهانيين" من منطقة وفلاسفة من جهة ثانية، قد زاد من تعميق الوعي بخصوصية البيان العربي منهجا ورؤية".³⁵ إن النظام البياني العربي كان محط نقاش متسع الدوائر الفكرية والثقافية المتعددة الأصول، وفي هذا السياق نورد نصا للدكتور عبد العزيز عتيق يقول فيه: "حفظ لنا كتاب البيان والتبيين للجاحظ قدرا كبيرا من ملاحظات المعتزلة المتصلة بالبلاغة العربية، وهذه قد استقاهما من مصدرين هما: التقاليد العربية، والثقافات الأجنبية التي شاعت في عصرهم واطلعوا عليها. فالثقافات الأجنبية التي أخذوا أنفسهم بدراساتها وتعمقوا في فلسفتها ومنطقها قد عادت عليهم بفائدتين لهما أثرهما في شؤون البلاغة: فائدة عقلية بحثة مصدرها دراسة الفلسفة الإغريقية التي نظمت عقولهم تنظيما دقيقا، أعانهم على استنباط القضايا البلاغية، وفائدة أخرى ترجع إلى طلبهم معرفة ما في ثقافات الأمم الأخرى التي وصلت إليهم من قواعد البلاغة والبيان".³⁶

لقد وقف الجابري عند مختلف التحديدات اللغوية للفظ "بيان" في أهم المعاجم العربية، ويمكن إجمالها في العناصر التالية:

- البيان بمعنى الوصل والفصل معا،
- البيان بمعنى الظهور والوضوح،
- البيان بمعنى القدرة على الإقناع والتبليغ،

33- محمد عابد الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية مرجع سابق، ص. 53.

34- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية في نظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1993، ص. 13.

35- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية في نظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1993، ص. 14.

36- عبد العزيز، عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص. 09.

- البيان، بمعنى الإفصاح مع الذكاء،
- البيان بمعنى إظهار المقصود بأبلغ لفظ،
- البيان بمعنى القول الساحر الذي اختص بالإنسان دون غيره من المخلوقات.

نشير في هذا المقام إلى كون الجابري ركز في اكتشافه للدلالة اللغوية لمادة (ب/ي/ن) على المعجم الشهير "لسان العرب" لابن منظور.

انقسمت الأبحاث البيانية منذ قيامها حسب الجابري إلى قسمين: "قسم يعني ب"قوانين تفسير الخطاب" وقسم يعني ب"شروط إنتاج الخطاب" وإذا كان الاهتمام بالتفسير يمكن الرجوع به إلى زمن النبي حينما كان الصحابة يستفسرونه عن معاني بعض الكلمات أو العبارات الواردة في القرآن... فإن الاهتمام بوضع شروط لإنتاج الخطاب البلاغي المبين لم يبدأ إلا مع ظهور الأحزاب السياسية والفرق الكلامية بعد حادثة "التحكيم" حينما أصبحت الخطابة والجدل الكلامي من وسائل نشر الدعوة وكسب الأنصار وإفحام الخصوم".³⁷ هكذا يوضح الجابري السياق التداولي الذي نشأ فيه البيان العربي وتطور وهو سياق التدافع والصراع بين المقولات والأفكار التي طبع الفكر العربي الإسلامي في مراحل الأولى.

إن رحلة الجابري إلى التراث البياني العربي أوقفته عند ثلاثة أعلام عربية حاول من خلالها تفكيك بنية العقل البياني، ويعد "محمد بن إدريس الشافعي"، أول من قفز بالبحث البياني من مراحل الأولى إلى مرحلة قعد معها لأصول الخطاب البياني (وضع قوانين لتفسير الخطاب)، مما أهل الشافعي لبلوغ هذا المقام معرفته الواسعة باللغة العربية وأساليبها التعبيرية، وإطلاعه الواسع على الجدل الكلامي والفقه الذي شهد عصره.

استحضر الجابري نصا للشافعي، يقول فيه: "البيان إسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع. فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة أنها بيان لمن خطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، مختلفة عند من يجهل لسان العرب".³⁸ ويعلق الجابري قائلا: "هكذا نجد أنفسنا، دفعة واحدة، أمام تعريف يقفز بكلمة "بيان" من مستوى المواضعة اللغوية الجارية إلى مستوى المفهوم، مستوى المصطلح العلمي. ومن الآن فصاعداً - أي منذ الشافعي - لن يعود البيان يعني مجرد الوضوح والظهور ولا مجرد الإظهار والإفصاح، بل إنه سيصبح، أيضا إسم جامعاً، أي مفهوماً مجرداً يتمتع بكل قوة المفهوم".³⁹

لقد حدد الشافعي (الأصول) انطلاقاً من ترتيب درجات البيان القرآني، ووضع الأساس لـ "قوانين" تفسير الخطاب البياني والقرآن على أعلى مستوياته...، أما درجات البيان في القرآن أو أنواعه، فخمسة:

- 1- بيان لا يحتاج إلى بيان، وهو ما أبانه الله لخلق نصا،
- 2- بيان في بعضه إجمال، وقد تكفلت السنة ببيان ما يحتاج منه إلى بيان،
- 3- بيان ورد كله في صورة المجمل، وقد تولت السنة تفصيله،
- 4- بيان السنة، وهو ما استقلت به هي نفسها ومن الواجب الأخذ به،
- 5- بيان الاجتهاد، ويؤخذ بالقياس على ما ورد فيه نص من كتاب أو سنة....".⁴⁰

37- محمد عابد، الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 10.

38- ورد عن الجابري نقلاً عن، محمد بن إدريس الشافعي، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 20.

39- المرجع سابق، ص. 22.

40- ورد عن الجابري نقلاً عن، محمد بن إدريس الشافعي، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 23.

لعل نظرية الشافعي (الأصولية) ذات الملمح البياني، نظرية تهتم بتحديد أصول التفكير ومنطقاته وآلياته التي اعتبرها الجابري جملة من المبادئ والقواعد في تفسير الخطاب البياني، وهي نفس المبادئ والقواعد التي تبناها المتكلمون والنحاة والبلاغيون، بعد أن ساهموا جميعاً في تدعيمها وإغنائها، فأصبحت بذلك عبارة عن قوانين عامة لتفسير الخطاب البياني العربي.

من تعقيد نظرية في تحليل الخطاب البياني عند الشافعي، وقف الجابري عند مقولة "شروط إنتاج الخطاب البياني" مع "الجاحظ" الذي عاصر الشافعي ثم عاش بعده مدة خمسين سنة، وهي رؤية ارتبطت بميدان إنتاج القول الأدبي على وجه التحديد (الشعر والخطابة والترسل...). ولعل الجاحظ ذو المذهب الاعتزالي شغله النقاش الكلامي، الأمر الذي دفعه إلى تفصي بنية الخطاب دراية وتفكيكا وبيانا، غير أن الجاحظ المتكلم لم يكن معنياً بقضية (الفهم)، فهم كلام العرب وحسب، بل كان مهتماً أيضاً، وربما بالدرجة الأولى، بقضية (الإفهام)، إفهام السامع وإقناعه وقمع الجادل وإفحامه.⁴¹

إن الجاحظ بهذه النظرة التي تركز على شروط إنتاج القول، يولي عناية خاصة بالسامع والمتلقي وينزله منزلة مهمة، أسماها الجابري: "بيداغوجية بيانية"، تضع السامع وأحواله النفسية موضع الاعتبار الكامل. لذلك نجد في كتابه إلى التنويع والاستطراد قصد الترويح عن السامع وشده إليه، وحتى لو أدى به ذلك إلى الخروج عن الموضوع.⁴²

لقد رصد الجابري في كتابه "بنية العقل العربي" أهم شروط إنتاج الخطاب البياني عند الجاحظ، في سياق الحديث عن ثنائية (الإرسال والاستجابة) ويمكن إجمالها في المستويات التالية:

■ البيان وطلاقة اللسان: وعالج الجاحظ في هذا المستوى، سلامة اللسان من العيوب الخلقية والقدرة على التبليغ والإفهام.

■ البيان وحسن اختيار الألفاظ: أي حسن اختيار اللفظ المناسب للمقام المناسب، مع تجنب الجمع بين الألفاظ المتنافرة، حروفاً وأصواتاً وكلمات.. مع وجوب اختيار الألفاظ المنسجمة مع سياق إنتاج الخطاب.

■ البيان وكشف المعنى: وهنا يقف الجاحظ عند مستوى إنتاج المعنى والدلالة.. "إن البيان كما يفهمه الجاحظ، وكما يريد تعريف الناس به، ليس هو مجرد الفصاحة وما تتقوم به من طلاقة اللسان وجزالة الألفاظ، بل إنه أيضاً، (الكشف عن المعنى)، فإذا لم يكن معنى لم يكن بيان...".⁴³

■ البيان سلطة: يقصد به الجاحظ، حجم التأثير الذي يصنعه القول البليغ في ذهن المتلقي أي حجم السلطة على السامع. ومن هنا كان البيان - منظورا إليه من زاوية وظيفته - هو القدرة على (إظهار ما غمض من الحق وتصور الباطل في صورة الحق). إن سلطة البيان كما حددها الجاحظ: هي ما عرف بالتعبير القرآني / فصل الخطاب. بمعنى القول الفاصل المقنع والمؤثر.

أما الشخصية الثالثة التي شغلت وعي الجابري عند مقارنته للعقل البياني فهو "أبو الحسين بن وهب الكاتب"؛ الذي لاحظ أن الجاحظ لم يدرس البيان دراسة منظمة في كتابه (البيان والتبيين) وإنما، "ذكر أخباراً منتخبة.. ولم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، ومن أجل ذلك، حاول ابن وهب تدارك هذا النقص الحاصل في نظره.

يريد ابن وهب أن يدرس البيان دراسة منظمة تعتمد بناء الموضوع على أصول وفروع بطريقة تقريرية، طريقة الأصوليين من فقهاء ومتكلمين، وليس بطريقة تعتمد (البيداغوجية البيانية) كما فعل الجاحظ. لقد عاش ابن وهب في عصر ازدهار الدراسات المنطقية

41- الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 25.

42- المرجع نفسه، ص. 25.

43- محمد عابد، الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 28.

في الثقافة العربية الإسلامية... العصر الذي انفجر فيه الصدام بين النحاة والمناطق، بين النظام المعرفي البياني والنظام المعرفي البرهاني".⁴⁴

رصد الجابري أوجه البيان كما حددها ابن وهب في كتابه: (البرهان في وجوه البيان): ويمكن إجمالها فيما يلي:

- بيان الاعتبار: أو بيان الحال، حال الأشياء: (فإن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبير بمعانيها لمن اعتبر)، وهو صنفان: ظاهر يدرك بالحواس... وباطن، غاب عن الحس واختلفت العقول في إدراكه).
- بيان الاعتقاد: وهو بيان، أي معرفة مركوزة في النفس. (وهذا النوع ثلاثة أضرب: حق ومشبه فيه وباطل).
- بيان العبارة: وهو بيان - حسب الجابري - جمع فيه ابن وهب، تفسير العبارة، أي (قوانين تفسير الخطاب) وتأليف العبارة، أي (شروط إنتاج الخطاب).

يقف الجابري كذلك عند ثنائية الظاهر والباطن التي طبعت وعي ابن وهب في معرض تحديده للعقل البياني، "وموضوع البحث في الصنفين معا ليس البيان الظاهر الذي لا يحتاج إلى تفسير بل البيان الباطن. (الذي يتوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر)."⁴⁵

- بيان الكتاب: يقف فيه ابن وهب عند قيمة الكتابة باعتبارها وسيلة لنقل الآراء والأفكار، ثم يصنفه إلى خمسة أصناف: "كاتب خط، وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبي".⁴⁶ يعلق الجابري على مشروع ابن وهب البياني بالقول: "مشروع ابن وهب مشروع بياني محض، وهو يجمع بين البحث الأصولي الذي دشنه الشافعي والبحث البلاغي الذي طوره الجاحظ وركزه على محور العلاقة بين اللفظ والمعنى، هذا بالإضافة إلى ما أنجزه الأصوليون والمتكلمون في موضوع الخبر والقياس وشروط اليقين ودرجات الصدق... يتعلق الأمر إذن بنظرية في المعرفة، بيانية في جميع المستويات".⁴⁷ وعلى مستوى المنطق الداخلي (يشكل فيها مفهوم البيان، مدار الكلام وقطب الرحى). وعلى مستوى الحمولة الإيديولوجية، أي سلطة النص والعقيدة، وعلى مستوى الأساس المعرفي الذي تقوم عليه.

لم تسلم أطروحات الجابري في سياق حديثه عن الرؤية البيانية العربية من النقد والرد، ومن الأمثلة الشاهدة على ذلك ما أورده الباحث "محمد همام" في كتابه: جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان، إذ يقول: "الجابري إذن تجاوز، عن قصد أو لغرض ما، حضور البياني في البرهاني، وحضور البرهاني في البياني، لكن ليس على طريقة التداخل التلفيقي / الصدامي، الذي رسخه مشروعه، بل هو تداخل تكاملي يعبر عن نتاج طبيعي لنضوج حضاري وليس (أزمة الأنظمة)".⁴⁸

فالجابري يذهب إلى اعتبار الأساليب البيانية في نسقها الاستدلالي، تشبيهية وقياسية، لا ترقى إلى مستوى الاستدلال البرهاني، الأمر الذي اعتبره الباحث محمد همام "أنه بني على فهم ضيق للبيان، أي اعتباره مجرد أساليب بلاغية شكلية، وهو أمر يؤكد تهاوته في ميدان فلسفة اللغة، إذ ثبت أن البلاغة هي مصدر أنماط من الاستدلالات المنطقية العلمية".⁴⁹

لقد حاكم الجابري البيان، وصفا ونقدا لا تحليلا وفهما، وفهم الظروف التي أفرزته وشكلت طبيعته. لكنه (وهو المستفيد من كل العلوم) لم يلتفت إلى بعض منجزات علم اجتماع المعرفة، لتبرير شرعية وجود البيان في هيكل الثقافة العربية الإسلامية، كخاصية من

44- محمد عابد، الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 33.

45- محمد عابد، الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 36.

46- المرجع نفسه، ص. 37.

47- محمد عابد، الجابري، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص. 37.

48 - محمد، همام، جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان، مرجع سابق، مرجع سابق، ص. 37.

49 - المرجع نفسه، ص. 38 / 39.

خصائص الحضارة الإسلامية، حيث يمتزج العامل اللغوي بآليات التفكير في فهم النص القرآني باعتباره نصاً لغوياً بامتياز. فتجاهل الجابري للجدور الموضوعية للبيان العربي أفقده الالتزام الصارم بـ "الحتمية الاجتماعية؛ التي عرفت عنه في أغلب كتاباته..."⁵⁰. ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها أيضاً على مشروع الجابري البياني، إغفاله لمعطيات البلاغة الجديدة في بعدها التداولي، "التي كانت هي الأنسب لاستيعاب الاختيار الذي سار فيه الجابري، أي عقلنة الخطاب العربي من خلال نقد التراث... محاولاً ابتلاع الحاضر، ولو سلك هذا الطريق الذي سار فيه بيرلمان ومناطقة القيم، في أجواء الحربين العالميتين، لأمكنه استيعاب أرسطو في بعده النقدي والحجاجي التداولي، بل والشعري أيضاً، ولما كان في حاجة إلى الهجوم العنيف على بلاغة ابن المقفع..."⁵¹.

وما يمكن تسجيله كذلك عن المشروع الطموح الذي أطلقه الجابري في سياق مقارنته للعقل البياني العربي، هو قوته وقدرته العالية على اختراق مجالات معرفية متعددة وهذا أمر يدفعنا إلى الاعتراف بموسوعيته المفتوحة، فضلاً عن مساهمته في تنسيق التراث العقلاني العربي، وبيان مواطن التفاعل بين مكوناته العربية والإسلامية والفارسية. فالمؤهلات التي ميزت فكر الجابري فيما يرتبط بالبيان العربية: البعد الإبلاغي البيداغوجي لنظريته اللغوية، ذلك أنه أقام طرق الاستدلال القائمة على الانطلاق من البنيات البسيطة إلى البنيات المركبة، موظفاً في تحليلاته الأمثلة والشواهد ذات المصادر المتعددة، وهذا أمر يدفعنا إلى اعتبار الجابري مفكراً يستحضر في وعيه، المتلقي المتعدد المستويات والمدارك المعرفية والمنهجية.

خاتمة:

من الواجب أن أوضح في نهاية هذه الورقة، أن الإحاطة بوعي الجابري حول موضوع اللغة ليس بالأمر اليسير لعدة أسباب، لعل أبرزها، السياق الفكري والمعرفي الذي حكم أطروحة الجابري، فوعيه باللغة، وعي يرتبط بتفكيك أسس العقل العربي المتعدد، تفكيكا يبنى على تحليل المرجعيات التي تستند عليها عملية تحصيل المعرفة وترويجها داخل كل حقل ومجال. فاللغة في وعي المفكر المغربي محمد عابد الجابري، نسق حامل للثقافة وعلامة دالة على الانتماء إلى المجال الاجتماعي والجغرافي بمحولاته الفكرية والتاريخية، إنما نظام النظر للأشياء وللوجود، حيث تتحرك الممارسة الفكرية والسلوك النفسي وما ينتجه العقل من أصناف الخطابات.

لقد نظر الجابري إلى عصر التدوين باعتباره قطيعة معرفية الهدف منها، إقامة ثورة ثقافية كبرى داخل المجال العربي، كما اعتبر أن المعجم اللغوي ظل بدوي الطبع، لكون جامعي اللغة حكمهم نموذج صارم في عملية تدوين المفردات، إذ تجاوزوا المفردات التي خضعت للتأثير والتأثر داخل المجالات الحضرية واهتموا بجمع الكلمات من الأوساط البدوية القحة، لذلك استنتج الجابري أن الأعرابي صنع العالم اللغوي الذي يحيا فيه، فاستمرت اللغة في التعبير عن حياة حسية متعلقة بمناخ الأعراب. حاول الجابري من خلال وعيه الفلسفي أن ينبش في مقولات النحاة العرب القدماء وربطها بتأثير الفلسفة اليونانية القديمة، خاصة مع أرسطو من قبيل: مقولات الفعل واسم الفاعل والزمان والمكان والصفة المشبهة... فضلاً عن اهتمامه بالبيان العربي وصيغ إنتاج الخطابة والتأثير، فخلص إلى أن الدرس اللغوي والبلاغي العربيين ولدا في بيئة عربية دينية محضة، يحملان وعياً يشكل العالم الفكري للجماعة العربية.

50- محمد، همام، جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن، مرجع سابق، مرجع سابق، ص 41.

51- محمد، العمري، الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري، ندوة محمد عابد الجابري، المواءمة بين التراث والحداثة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 1، 2016، ص. 107/108.

إن قضايا الدرس اللغوي في أدبيات محمد عابد الجابري لم تسلم من مناولات نقدية بينت قصوره في الإحاطة بالمعرفة اللغوية العربية، خاصة مع تطور المعرفة اللسانية الحديثة، سواء تعلق الأمر باللسانيات البنائية أو باقي أشكال المعرفة اللغوية الأخرى، كاللسانيات الاجتماعية والنفسية والعصبية.. وغيرها.

كل ما ذكرناه لا يمنعنا من الاعتراف بقدر ومكانة الجابري في تأسيس وعي إبستمولوجي حول الظاهرة اللغوية العربية بشكل عام، خاصة وأنه محمل بفكر فلسفي لا يستهان بشأه، لذلك وجدناه حاملاً لرؤية موسوعية تخترق دوائر ثقافية ومعرفية متعددة.

لائحة المراجع المعتمدة:

- 1- الجابري، محمد عابد. المسألة الثقافية في الوطن العربي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص. 276/275/274.
- 2- الجابري، محمد عابد. ماي 1981، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، ندوة البحث اللساني والسميائي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6، ص. 43.
- 3- الجابري، محمد عابد. 1993، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية في نظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، ط 3، ص. 13.
- 4- المسدي، عبد السلام. يوليو 2014، الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 1 بيروت، ص. 25.
- 5- العمري، محمد. 2016، الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري، ندوة محمد عابد الجابري، المواءمة بين التراث والحداثة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 1، ص. 108 / 107.
- 6- همام، محمد. 2013، جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، ط 1، البيضاء، ص. 34 / 33.
- 7- كولاص، فلوريان. 2009، دليل السوسيولسانيات، ترجمة خالد الأشهب وماجدولين النهيي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، ص. 760.
- 8- عشير، عبد السلام. 2010، تطور التفكير اللغوي، ط 1، الرباط، ص. 7.
- 9- عتيق، عبد العزيز. المدخل إلى علم النحو والصرف، دار النهضة العربية، بيروت، ص. 115.